مشروع كانط للسلام الدائم: أسسه ومصادره

د. محمود سيد أحمد*

E.mail: mahmouds85@hotmail.com

* قسم الفلسفة – كلية الآداب – جامعة الكويت

مشروع كانط للسلام الدائم:
أسسه ومصادره

د. محمود سيد أحمد

الملخص:

الهدف من هذا البحث هو بيان الأسس والمصادر التي يقوم عليها مشروع كانط للسلام الدائم. ويزعم الباحث أن هذه الأسس والمصادر تتمثل في:

1 – مصادر وأسس داخلية: وهي مصادر وأسس وثيقة الصلة بمؤلفات كانط المختلفة، خاصة في مرحلة النقد. وتتمثل هذه الأسس والمصادر في: مبدأ الكلية، مبدأ كأن أو كما لو، الإرادة الخيرة، الواجب، مملكة الغايات، التصور الغائي للطبيعة، والنزعة السلمية عند كانط.

2 – مصادر وأسس خارجية: وهي المصادر والأسس التي جاءت من خارج فلسفة كانط، وتتمثل في: المسيحية والدعوة إلى السلام والأخوة العالمية، عصر كانط، وأسلاف كانط في السلام، خاصة الأب سانت دي بيير، وجان جاك روسو.

مصطلحات أساسية: مبدأ الكلية ، مبدأ كأن، مبدأ مُنظِم، مبدأ مُكوِّن ، إرادة خيرة ، واجب ، مملكة الغايات ، غائية ، مبدأ العلانية ، أخوة عالمية.

Kant's Prolegomena for Perpetual Peace: "Its Foundations and sources"

DR. Mahmoud Sayed Ahmed

Abstract:

The aim of this paper is to display the foundations and sources on which Kant's Prolegomena for perpetual peace is built. I claim that these foundations and sources consist in:

1- Internal foundations and sources: These are related closely to Kant's writings, especially in the Critique period. They consist in: The principle of Universality, the principle of as if, Good Will, Duty, The Kingdom of Ends, the Teleological conception of nature and Kant's tendcy to peace.

2- External foundations and sources: These come from outside Kant's philosophy. They consist in: Christainity and its Calling for peace and world brotherhood, Kant's Age and The Previous philosophers who called for peace, especially Abbe de Saint Pierre and J.J. Rosseau.

Keywords: The principle of universality , The principle of as if, Regulative principle, Constitutive principle Good will, Duty, Kingdom of Ends, Teleology, The principle of publicity, World brotherhood

تمهيد:

شغلت مشكلة الحرب والسلام أذهان كثير من المفكرين والمصلحين والفلاسفة منذ أقدم العصور حتى يومنا الراهن. وذهب الكثير منهم إلى أن الحرب وبال على الناس لابد من إزالتها حتى يحل السلام بين البشر. وقدموا حلولاً آملين أن تضع نهاية للحرب وتحقق السلام. فقد أهاب الراقيون قديماً منذ القرن الثالث قبل الميلاد بالإنسانية أن تحرر نفسها مما يفرق بين الإنسان وأخيه من فروق اللغات والأديان والأوطان، ونظروا إلى الناس جميعاً وكأنهم أسرة واحدة، قانونها العقل ودستورها الأخلاق. ودعا «الفارابي» (950-780م) في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة » إلى إقامة اتحاد يربط بين مختلف المجتمعات البشرية في ظل ما أطلق عليه اسم «المعمورة الفاضلة» [1]. وكتب «إمريك كروسيه» (1590-1849 E. Cruce) كتاباً صغيراً عنوانه «كينياس الجديد، أو مقال في فرص ووسائل إقرار سلام عام وحرية التجارة في العالم كله»، يبين فيه أن الحروب لا تستحق ما تؤدي إليه من تكاليف في المال والرجال، وينتهي إلى ضرورة تنظيم السلام بحيث يستقر ليس فقط بالنسبة إلى جيل واحد، بل يستمر طوال الأجيال القادمة. وعلى نحو مشابه اقترح « وليم بن » (1644- 1718) W. Penn مشروعاً للسلام العالمي في كتاب عنوانه « بحث في السلام الحاضر والمستقبل في أوروبا بإنشاء مجمع، أو برلمان، أو دولة أوروبية «كما كتب» الأب سانت دي بيير»(1658-1743) Abbe de Saint Pierre) كتاباً عنوانه « مشروع لجعل السلام في أوروبا سلاماً دائما «، يقترح فيه إنشاء اتحاد بين الأمراء لتكوين ما يشبه دولة اتحادية لها دستورها، ولها وجود مستقل، ومهمات متميزة عن تلك الخاصة بالدول المؤلفة لها [2].

وقد تتابع اهتمام الفلاسفة المحدثين بمشكلة إزالة الحرب وإيجاد سلام بين الدول. ونجد ذلك واضحاً عند الفيلسوف الألماني أمانويل كانط (I. Kant 1724 . 1804) الذي يخصص مؤلفاً من مؤلفاته هو « مشروع للسلام الدائم » (1795) يضع فيه مجموعة من المواد أو الشروط التي يعتقد أنها يمكن أن تحقق سلاماً دائماً بين الدول، وتضع نهاية للحرب.

وثمة دراسات وبحوث كثيرة عن «مشروع كانط للسلام الدائم» [x]، لكننا قد لا نجد دراسة أو بحثاً يحاول أن يبين الأسس والمصادر التي يقوم عليها هذا المشروع . ولذا فإن هدفي في هذا البحث هو محاولة بيان الأسس والمصادر التي يقوم عليها هذا المشروع . وأزعم أن هذه الأسس والمصادر منها ما هو داخلي، أي أنها وثيقة الصلة بمؤلفات كانط المختلفة، وبصفة خاصة كتاباته في مرحلة «النقد»، وأعني بها المرحلة التي تبدأ بظهور كتابه «نقد العقل الخالص» (عام 1781). ولذلك فإنها تضرب بجذورها في فلسفة كانط، ومن ثم لا يمكن فهم هذا المشروع بمعزل عنها، ومنها ما هو خارجي جاء من خارج فلسفة كانط . ومن ثم فإن السؤال الذي يدور حوله البحث هو: ما المصادر والأسس التي يقوم عليها هذا المشروع المهم؟

أولاً: الأسس والمصادر الداخلية:

يمكن أن نحصر هذه الأسس والمصادر في:

أ ـ مبدأ الكلية:

الكلية Universality هي صفة ما هو كلي Universal، والكلي هو المنسوب إلى الكل، ويرادفه الشامل، أو العام، فنقول العلم الكلي، والحتمية الكلية الشاملة لجميع أقسام العالم. وبذلك فإن الكلية تعني ما هو شائع، أو مشترك بين الجميع. ويحتل مبدأ الكلية مكانة مهمة في فلسفة كانط بأسرها [3]. ويبدو أن هدفاً من أهداف كانط الأساسية الإجابة عن هذا السؤال: هل يمكن الوصول إلى معرفة كلية، وإلى أخلاق كلية، وإلى أحكام جمالية كلية، وإلى دين كلي؟ . ففي مجال المعرفة يرى كانط أن «كل معرفتنا تبدأ بالتجربة، لأن قدراتنا المعرفية لن تقوم بعملها ما لم تؤثر موضوعات التجربة على حواسنا، فتسبب من جهة حدوث التصورات تلقائياً، وتحرك من جهة أخرى نشاط الفهم لكي يقوم بمقارنتها، وربطها، أو فصلها» [4] . لكن على الرغم من هذه الأهمية للتجربة، فإن معرفتنا بأسرها لا تنبثق منها؛ لأنها، كما يرى كانط، لا تعطي لأحكامها «كلية» حقيقية وصارمة [5] . ونتيجة لذلك يرى كانط أن المعرفة «الكلية» لا تكون ممكنة إلا من حيث إنها مؤسسة في واقعة «عقل نظري» أو قل في «عقل محض» Pure Reason . هذا «العقل» ينقسم إلى ثلاث ملكات ثانوية، لكل ملكة منها دور في هذه المعرفة الكلية وهي: الحساسية Sensibility، والفهم Understanding، والعقل Mind . الحساسية تقوم بهذا الدور عن طريق ما تمتلكه من صور قبلية ممثلة في الزمان والمكان، ويقوم الفهم بهذا الدور عن طريق ما يمتلكه من مقولات، أما العقل فيقوم بهذا الدور عن طريق أفكار ideas ثلاث هي: النفس، العالم، الله [6] .

وفي مجال الأخلاق نجد أن هدف كانط الأساسي هو محاولة الوصول إلى مبدأ أخلاقي «كلي» ينطبق على جميع الكائنات العاقلة في كل زمان ومكان؛ هذا المبدأ الأخلاقي هو «الواجب» . فلقد رأى كانط أن المبادئ التجريبية مثل الرغبة، السعادة، واللذة وغيرها «لا تصلح مطلقاً لأن تؤسس عليها القوانين الأخلاقية؛ ذلك لأن طابع الكلية الذي يجعلها صالحة لجميع الكائنات العاقلة بغير تمييز؛ والضرورة العملية غير المشروطة المفروضة عليها عن هذا الطريق ينتفيان» [7] . لقد أراد كانط أن يرفع هذا الواجب إلى مستوى العمومية، أو الكلية، التي يتميز بها القانون الطبيعي، ويظهر ذلك جلياً في قوله «إن الأمر الكلي للواجب يمكن أن يعبر عنه في هذه الصيغة: «افعل كما لو كان على مسلمة فعلك أن ترتفع عن طريق إرادتك إلى قانون طبيعي عام» [8] .

وفي مجال الأستاطيقا (الجمال) يرى كانط أن مادة الإحساس (الانفعال، الجاذبية الحسية ...) ليست هي الشيء الجوهري والأساسي، والذي يهمنا عندما نكون بصدد الحكم على الأشياء الجميلة، وذلك لأن مادة الإحساس تتغير، وتخضع لظروف الزمان والمكان، وينجم عن ذلك أنه ينقصها طابع «الكلية»، ومن ثم لا تكون قابلة للتوصيل والمشاركة من جانب جميع أولئك الذين يحكمون على الموضوعات أو الأشياء الجميلة. إن الذي يهمنا هو الشكل أو الصورة Form التي تستثير فينا ضروباً من المتعة الجمالية دون اهتمام بأية غاية وراءها . في هذه الحالة يمكن أن نصل إلى أحكام جمالية «كلية» لا

تتغير، ولا تخضع لظروف الزمان والمكان، وبذلك تكون قابلة للتوصيل والمشاركة من جانب الجميع، يقول كانط « لا يمكننا أن نفترض أن الإحساسات تتفق في كل الذوات، ولا يمكننا بذلك أن نفترض أن المعيار الذي نقيس به الجمال واحد عند الجميع؛ لأنه ـ كما رأى هيوم ـ يختلف من فرد لآخر » [9] .

و في مجال الدين وجد كانط أن الإيمان التاريخي يخضع لظروف الزمان والمكان، مما يؤدي إلى وجود عقائد كثيرة متعددة تختلف باختلاف الأفراد أنفسهم . فنحن نقول عن شخص إنه مسلم ونقول عن آخر إنه مسيحي، وعن آخر إنه يهودي. وقد دفع ذلك كانط إلى التساؤل هل يمكن أن يكون هناك دين «كلي» واحد يمكن أن يشترك فيه البشر كلهم، ووجد أن الإيمان الأخلاقي، أو «الدين الأخلاقي» هو الذي يصلح لأن يكون ديناً للبشر كلهم؛ لأنه واحد لا يختلف باختلاف الزمان والمكان . فهذا الدين يهتم بما هو مشترك بين الناس جميعاً مثل: الإشادة بالبر، والتقوى، والإحسان، إنه دين عمل، وعملي داخلي وأخلاقي خالص [10] .

مما سبق يتبين لنا أن لمبدأ «الكلية» أهمية كبرى في فلسفة كانط . ويمكن أن نقول إن هذا المبدأ امتد إلى المشروع الذي قدمه كانط في السلام، وآية ذلك أن كانط لم يكن يرغب ـ خلافاً للفلاسفة السابقين عليه، والذين سنشير إلى أهمهم فيما بعد ـ في تحقيق سلام بين دولتين أو مجموعة من الدول، وإنما كان يرغب في تحقيق سلام « كلي « يشمل كل الدول. ويتضح ذلك من عنوان الكتاب الذي قدم فيه هذا المشروع «مشروع للسلام الدائم». هذا السلام يتحقق ـ كما يرى ـ عن طريق «تنظيم الشعوب كلها في» مدينة حرة»، أو بعبارة أخرى عن طريق محاولة جمع شملها في «حلف سلمي». هذا «الحلف» يختلف عن معاهدة السلام» لأن من شأنه أن يقضي إلى الأبد على الحروب جميعاً، في حين أن معاهدة السلام إنما هي إنهاء لحرب واحدة [11] . وهذا «الحلف» هو هدف يجب أن نأمل في تحقيقه، وينبغي أن يمتد شيئاً فشيئاً إلى الدول جميعاً فيؤلف بذلك «جامعة أمم» تنمو على الدوام حتى تشمل شعوب الأرض جميعاً [12]. وغاية هذا الحلف هو المحافظة على حرية الدول المتحالفة، وضمان هذه الحرية، وصرف هذه الدول عن سبيل الحرب، وكبح جماح الأهواء التي تنافي الإنسانية. إن هدفه، بوجه عام، هو تحقيق السلام الدائم، الكلي.

ب ـ مبدأ كأن أو «كما لو» As if :

يذكرنا هذا المبدأ بالفيلسوف الألماني «هانز فاينجر» (H. Vaihinger (1852-1933)، مؤلف كتاب «فلسفة كأن» of as- ifness Philosophy، والذي يرتبط اسمه في الفلسفة بـ «فلسفة كأن». وعلى أية حال يقول هذا المبدأ إن الإنسان يبتكر عالماً من الأفكار المختلقة Fictions يستكمل به الواقع الذي يعيش فيه عندما يقصر هذا الواقع عن الوفاء بطموحه، ويعيش في عالمه المختلق وكأنه as if حقيقة، رغم أنه يعرف أنها اختلاقات لا أساس لها من الصحة، وزائفة.

وعندما نعود إلى كانط فإننا نجده يميز بين نوعين من المبادئ: المبدأ المُكوِّن Constitutive، والمبدأ المُنظِم regulative . المبدأ المكون هو الذي يكون له وجود سابق على التجربة، بيد أنه ينطبق عليها؛ لأنه شرط لإمكانها، مثل المكان والزمان والسببية . أما المبدأ المنظم فهو مجرد فكرة idea ليس له وجود واقعي، ووظيفته تكمن في التوجيه

والإرشاد، مثل فكرة النفس، العالم، الله . في هذه الحالة نفعل كما لو as if كانت الفكرة المنظمة. أو قل المبدأ المنظم. لها وجود واقعي . ففكرة النفس تمكننا من أن ننظر إلى جميع ظواهر النفس كالجوهرية، والبساطة ... إلخ، كما لو كانت تنتمي إلى موضوع واحد هو النفس، وفكرة العالم تمكننا من أن ننظر إلى جميع الظواهر كما لو كانت لا نهائية، وفكرة الله توجهنا لننظر إلى كل ارتباط في العالم كما لو كان مصدره علة ضرورية كافية كل الكفاية [13] . إننا لا ننسب هنا إلى هذه الأفكار حقيقة واقعية، بل نتصورها كما لو كان لها وجود واقعي .

ونعتقد أن هذا المبدأ. مبدأ كأن. امتد إلى مشروع كانط في السلام الدائم. فالسلام الكلي الذي يدعو إليه كانط وينشده هو مجرد فكرة، هذه الفكرة ليست جوفاء، بل إنها هدف يجب أن نأمل في تحقيقه . ومن ثم يجب علينا أن نفعل. كما يذهب. كما لو كانت هذه الفكرة ممكنة التحقيق، يقول معبراً عن ذلك « إنها لم تعد مسألة ما إذا كان السلام الدائم ممكناً بصورة حقيقية أم لا، أو إذا كنا نخطئ في حكمنا النظري إذا افترضنا أنه يجب أن يكون ممكناً . وعلى العكس يجب علينا ببساطة أن نفعل كما لو كان ممكن التحقيق بصورة فعلية، ونحول مجهوداتنا نحو تحقيقه ونحو تأسيس ذلك الدستور الذي يبدو أكثر ملاءمة لهذا الغرض » [14] . إنه ليس هناك ما يمنع أن يكون شأن هذه الفكرة. أعني فكرة السلام الدائم. كشأن الأفكار الثلاث التي ذكرناها سابقاً، بمعنى أنها « مبدأ منظم »، وقاعدة يُسترشد بها في العمل؛ ذلك أن العقل العملي الأخلاقي بداخلنا « يعلن هذا الاعتراض الذي لا يتزعزع: يجب ألا تكون هناك حرب » [15] . فالحرب ليست ضرورة حتمية لا مفر منها، إنها ليست إلا وسيلة تعسة يلجأ إليها المرء مضطراً لإقرار حقه بالقوة، وهي في طور الفطرة (حيث لا وجود لمحاكم تفصل في الأمور بقوة القوانين) [16].

جـ. الإرادة الخيرة:

من أهم الأسس التي تقوم عليها الأخلاق عند كانط الواجب، هذا الواجب. الذي سنتحدث عنه فيما بعد. لا نعرفه إلا عن طريق ملكة فريدة هي « الإرادة الخيرة « Good Will، أو النية الطيبة . هذه الإرادة هي إرادة خالصة، وتتميز بأنها خيرة في ذاتها؛ بمعنى أن المنفعة لا تضيف إلى قيمتها شيئاً ولا عدم المنفعة يمكنها أن تنقص منها في شيء . كما تتميز بأنها خيرة بلا حدود، ومن ثم تكون معياراً للخيرية الموجودة في كل صنوف الخير مثل الفهم، الذكاء، وملكة الحكم وما سواها من مواهب العقل [17] . فصنوف الخير هذه وغيرها تكون بالغة السوء والضرر إذا لم تكن الإرادة التي عليها أن تستخدمها إرادة خيرة . فالفهم صفة خيرة، لكن عندما يستخدمه لص، مثلاً، فإنه يتحول إلى صفة شريرة . ولذلك يجب أن تكون الإرادة هي الخير الأسمى والشرط الذي يتوقف عليه الفهم وكل خير آخر .

ويظهر هذا المفهوم، أعني الإرادة الخيرة، بجلاء ووضوح في مشروع السلام الدائم عند كانط . فلو دققنا النظر في المادة الأولى من الشروط التمهيدية أو السلبية لهذا المشروع، لوجدنا أنها امتداد لهذا المفهوم . تقول هذه المادة « إن معاهدة من معاهدات السلام لا تعد معاهدة إذا انطوت نية عاقديها على أمر من شأنه إثارة الحرب من جديد » [18]. إن هدف كانط من هذه المادة هو أن يؤكد ضرورة

توافر الصراحة والوضوح في العلاقات بين الدول، والحوار والتفاوض، والعلانية التامة، وعدم إضمار شن الحرب في المستقبل، وحظر وجود بنود سرية في المعاهدات، وعدم التكتم على ادعاءات قديمة قد تكون سبباً للعدوان والحرب فيما بعد. ولا يتحقق هذا الهدف إلا إذا كان الأساس الذي تقوم عليه العلاقات بين الدول هو « الإرادة الخيرة «، أو النوايا الطيبة أو الحسنة. لأنه يعتقد أن هذا الأساس قد يساعد على الكشف عن الأسباب الخفية والكامنة لاندلاع حرب في المستقبل، وتقضي عليها بالتالي، ويعطي فرصة أكبر لتحقيق السلام. ولكننا نتساءل: هل يمكن أن تكون النوايا الطيبة التي يتحدث عنها كانط وتتحدث عنها الدول أساساً للسلام؟ إن الكلام عن الأخلاق والنوايا الطيبة أو الحسنة لا آخر له لكن لا أساس له أيضاً [19]. والواقع الذي عاشه كانط نفسه والذي نعيشه نحن الآن يشهد بذلك. ولكن على الرغم من هذا نقول إننا نأمل مع كانط أن يتحقق ما كان ينشده، فما أحرانا اليوم بتحقيق هذا الأمل وقد ساءت العلاقات بين الدول إلى حد كبير !! ولم تعد هناك صراحة ووضوح في العلاقات بينها .

د . الواجب:

يتميز الواجب عند كانط بأنه واحد وكلي، ينطبق على جميع الموجودات العاقلة بدون تمييز . كما يتميز بأنه يتخذ صفة «الأمر المطلق»؛ فهو يقول يجب عليك أن تفعل، أو افعل هذا، لأن واجبك هو الذي يحتم عليك أن تفعله، لا لأي سبب آخر. وهو بهذا يتميز عن «الأوامر المشروطة» التي تكون مقيدة بشرط ذاتي عارض، فهي تقول افعل كذا، لأنه يترتب عليه كذا من النتائج . ولما كان الواجب هكذا؛ أعني أنه أمر مطلق، فإنه قانون ملزم، ويحتوي على تشريع، ولا يمكن التعبير عن هذا التشريع إلا بأوامر كلية مطلقة . هذه الأوامر تتخذ صورة قواعد لها صفة الكلية . ويحصر كانط هذه القواعد في ثلاث قواعد، تبدأ كلها بصيغة الأمر « يجب»، أو «افعل». فالقاعدة الأولى تقول: افعل كما لو كان على مسلمة فعلك أن ترتفع عن طريق إرادتك إلى قانون طبيعي عام: [20]، وتقول القاعدة الثانية: افعل الفعل بحيث تعامل الإنسانية في شخصك وفي شخص كل إنسان سواك بوصفها غاية في ذاتها ولا تعاملها أبداً كما لو كانت مجرد وسيلة [21]، وتقول القاعدة الثالثة « افعل بحيث تجعل إرادتك بمثابة مشرع يسن للناس قانوناً عاماً» [22] .

وإذا أمعنا النظر في كثير من مواد أو شروط السلام الدائم عند كانط لوجدنا أن مبدأ الواجب يظهر فيها بجلاء؛ فهي تبدأ بصيغة الأمر . تقول المادة الثالثة من المواد الأولية، أو الشروط السلبية « يجب أن تلغى الجيوش الدائمة على مر الزمان» [23]، وتقول المادة الرابعة «يجب ألا تعقد قروض وطنية من أجل المنازعات الخارجية للدولة»[24]، وتقول المادة الأولى من المواد النهائية، أو الشروط الإيجابية « يجب أن يكون الدستور المدني لكل دولة دستوراً جمهورياً» [25]، وتقول المادة الثانية « يجب أن يقوم قانون الشعوب على التحالف بين دول حرة» [26] . وتقول المادة السرية للسلام الدائم « يجب أن توضع أحكام الفلسفة، فيما يتعلق بشروط السلام الدائم، موضع الاعتبار لدى الدول المجهزة للحرب» [27] .

هـ . مملكة الغايات:

في مقابل عالم الطبيعة الذي تحكمه قوانين آلية خارجية والتي من أهمها قانون العلية، يرى كانط أن ثمة عالماً آخر هو عالم الحرية، هذا العالم هو عالم الأخلاق، أو مملكة الغايات . هذه المملكة أشبه بمملكة الله عند القديس أوغسطين التي يجب أن تتجلى على الأرض، ويقصد بها كانط «ذلك الترابط المنظم الذي يجمع بين كائنات عاقلة متعددة عن طريق مبادئ وقوانين مشتركة» [28]، من أهم هذه المبادئ: الاحترام، والكرامة، والحرية والاستقلال الذاتي . بالنسبة للمبدأ الأول وهو الاحترام يتحقق لأن كل شخص بداخل مملكة الغايات لا ينظر إلى نفسه وإلى الآخرين على أنهم أدوات أو وسائل لخدمة، أو لتحقيق أغراض ومصالح شخصية . وينجم عن هذا نتيجة مهمة هي أن الإنسان يختلف تماماً عن الأشياء؛ لأن نظام الوسائل هو الذي يتفق مع الأشياء؛ أي أن الأشياء هي التي نستخدمها كوسائل وأدوات . إنه يجب على كل شخص بداخل هذه المملكة أن يفعل بحيث يعامل كل موجود بشري، بما في ذلك نفسه، على أنه غاية، ولا يعامله كوسيلة [29] .

أما بالنسبة للمبدأ الثاني وهو الكرامة فهو نتيجة مترتبة على مبدأ الاحترام، فطالما أن الإنسان ليس شيئاً من الأشياء، ويجب ألا نعامله هكذا، فلن يكون له « ثمن»، بل تكون له كرامة . فالأشياء هي التي يكون لها ثمن، ومن ثم يمكن أن نستبدل شيئاً بشيء آخر يساويه في الثمن [30] .

ويتجلى المبدأ الثالث وهو الحرية والاستقلال الذاتي في أن الإنسان يكون مشّرعاً لنفسه بنفسه، ولا طاعة واجبة عليه إلا للقانون الذي يشّرعه لنفسه؛ لأنه التعبير الضروري عن طبيعته باعتباره موجوداً عاقلاً . لقد اقتضت الأخلاق أن يريد الإنسان القانون الأخلاقي وأن يخضع له بمحض حريته، ومن ثم لا يكون وسيلة، أو أداة لخدمة قانون يفرض عليه من الخارج .

إن مملكة الأخلاق عند كانط هي مملكة من أحرار يعد كل منهم غاية في ذاته، وله كرامة، وحر بالنظر إلى جميع القوانين الطبيعية، لا طاعة له إلا للقوانين التي يضعها أو يشّرعها بنفسه لنفسه. وتبدو كلمات كانط صيحة من صيحات التحرير استبعد بها العبودية والاستغلال، والافتقار إلى توقير الآخرين واحترام كرامتهم، وكفالة استقلال شخصيتهم . إنها صيحة تشكل أعظم مثل إنساني في وقتنا الحاضر [31] . ويمكن أن نقول إن فكرة السلام الدائم، أو «حلف السلام» التي يدعو إليها كانط تكاد لا تختلف عن هذه المملكة . بل نستطيع أن نقول إن كانط كان يأمل أن تتحقق هذه المملكة في حياة الناس السياسية والاجتماعية، يقول معبراً عن ذلك « يمكن أن نقول إن سيادة المبدأ الخير يمكن بلوغه من حيث إن الناس يسعون إليه عن طريق مجتمع وفقاً لقوانين الفضيلة ومن أجلها، مجتمع تكون مهمته وواجبه أن يطبع هذه القوانين بصورة عقلية على الجنس البشري بأسره » [32] .

ويتجلى أمل كانط في أن تتحقق مملكة الغايات في كثير من مواد أو شروط السلام الدائم . تقول المادة الثانية من المبادئ أو الشروط السلبية (التمهيدية) «لا يجوز لدولة أن تملك دولة مستقلة بطريق الميراث، أو التبادل، أو الشراء، أو الهبة» [33] . وتقول المادة الخامسة من مواد الشروط نفسها « لا يجوز لأي دولة أن تتدخل بالقوة في نظام دولة أخرى أو في طريقة الحكم فيها» [34] . إن الدولة كما يتصورها كانط

أشبه بالشخص المستقل الحر، المستقل ذاتياً، المشرع لنفسه بنفسه، ومن ثم تكون لها كرامة، وتكون غاية في ذاتها، يقول كانط « الدولة أشبه بجذع الشجرة لها أصولها الخاصة وإدماجها في دولة أخرى كما لو كانت نباتاً يُطعم به نبات آخر معناه تجريدها من وجودها باعتبارها شخصاً معنوياً » [35] . إن التدخل في شؤون دولة والتحكم في مصيرها يؤدي إلى استعمال المواطنين وكأنهم أشياء تستخدم حسب الأهواء.

ولما كانت الدولة هكذا، فإنه لا يجوز لدولة أن تتدخل في شؤون دولة أخرى، أو يكون لها الحق في ملكيتها بأية طريقة. فهي ليست «متاعاً (كرقعة الأرض التي اتخذتها لها وطناً) وإنما هي جماعة إنسانية لا يحل لأحد سواها أن يفرض سلطانه عليها أو يتصرف في شؤونها» [36]، وهي ليست سلعة للتبادل، أو شيئاً من الأشياء يخضع للبيع والشراء والهبة أو الميراث . إنها، من ثم، غاية في ذاتها، ولها كرامة وليس لها ثمن .

و- التصور الغائي للطبيعة:

يؤكد كانط في كتابه «نقد العقل الخالص» أنه لا يمكن لأحد أن يشك في أن العالم يقدم لنا مسرحاً واسعاً يتسم بالتنوع والنظام، يتسم بالغائية والجمال سواء نظرنا إليه في امتداده اللانهائي أم إلى الانقسام اللامحدود لأجزائه، حتى إننا نعجز أن نعبر عن روائعه العظيمة بالمعرفة التي نحصلها عنه بفهمنا الضعيف. إننا نشاهد في كل مكان علامات واضحة لنظام منفذ وفقاً لغاية محدودة وبحكمة عظيمة [37]. كما يؤكد في كتابه «نقد ملكة الحكم» أننا ندرك أن كل كائن حي نافع ومفيد لشيء أو لآخر، حتى إننا نقر في نهاية الأمر أنه «لا شيء عبث في أشكال الحياة، ولا شيء يحدث بالصدفة» [38].

ويتجلى هذا التصور الغائي للطبيعة في مشروع كانط للسلام الدائم، فقد بدا له أن الغائية الموجودة في الطبيعة تناصر السلام. وآية ذلك أن مجرى الطبيعة ينطق بوضوح بأن غايتها أن تبسط الوفاق والوئام، وتدبر الأمور تحقيقاً للغاية القصوى للجنس البشري، وهي تكوين مجتمع مدني يحكمه قانون عام، ترتبط فيه الحرية في نطاق القوانين الخارجية إلى أعلى درجة ممكنة بقوة لا تقهر. كما يذهب إلى أن الطبيعة بما فيها من تدبير وغائية قد يسرت للناس القدرة على أن يعيشوا في جميع مناطق الأرض؛ ففي السهول الباردة ينمو بعض العشب الذي تجده الرنة تحت الثلج فتتغذى به . والرنة نفسها تتخذها بعض الشعوب (كالأستياك والسمويد) طعاماً لهم، أو لجر زلاقاتهم . والصحاري ذات الرمال المالحة تنتج «الجمل» وكأنه خلق لاجتيازها وتيسير الانتفاع بها. وقد أمدت الطبيعة المناطق المحرومة من النبات بالأخشاب الطافية التي لا يُعلم مصدرها، والتي لولاها ما استطاع أهلها أن يصنعوا زوارقهم وأسلحتهم، ولا أن يقيموا أكواخهم ... [39] .

يضاف إلى ما سبق أن كل شعب يلقى جاراً يضيق عليه تضييقاً يحمله على أن ينظم نفسه في دولة لتكون في وسعها أن تقاومه . ولتنظيم الدولة تنظيماً حسناً، ينبغي أن تتآلف القوى البشرية تآلفاً يجعل بعضها يحد الآثار البغيضة لبعضها البعض، أو يقضي عليها قضاء تاماً ويصبح كل فرد مجبراً على أن يكون مواطناً صالحاً . إن استعدادات الأفراد وميولهم ورغباتهم متعارضة، ويقوم تدبير الطبيعة وغائيتها بتوجيه هذه الاستعدادات والميول والرغبات

توجيهاً يجعل جميع أفراد الشعب يلتزمون فيما بينهم بالخضوع لقوانين قاهرة، ومن ثم ينشؤون حالة سلمية تقوم على احترام القوانين . إن هذا التدبير يمكن أن يتخذه العقل وسيلة لبلوغ غايته وهي مبادئ الحق، والوصول أيضاً إلى مناصرة السلام واستتبابه في الداخل بقدر ما يعتمد ذلك على الدولة نفسها [40] .

وعلاوة على ما تقدم فإن الطبيعة قد جعلت كل دولة في حاجة إلى الدول الأخرى، مما يؤدي إلى تبادل المصالح بين الدول، وهذا بدوره يؤدي إلى جمع شملها جمعاً ما كانت فكرة القانون العالمي وحدها تستطيع أن تحميه من العنف والحرب.

ز- نزعة كانط السلمية:

مِنْ يمعن النظر في كتابات كانط في المرحلة النقدية قد يلاحظ تغلغل النزعة السلمية فيها. فهي تصور لنا صراعاً ينتهي بحل، قد يكون هذا الحل سلمياً في أغلب الأحوال. ففي كتابه «نقد العقل الخالص» نجد صراعاً بين العقليين والتجريبيين حول مصدر المعرفة، هل هو التجربة أم العقل، ويحاول كانط حل هذا الصراع بأن يجمع بين التجربة والعقل. وفي كتابه «نقد العقل العملي» نجد صراعاً حول المبادئ التي تحدد أخلاقية الأفعال الإنسانية، هل هي المبادئ العقلية مثل الكمال، وإرادة الله، أم المبادئ التجريبية مثل اللذة، والسعادة، والرغبة، ونجد كانط يرى أنه ليس هناك نهاية لهذا الصراع إلا إذا كان هناك مبدأ كلي عام ينطبق على كل الناس من حيث هم موجودات عاقلة، هذا المبدأ هو الواجب. وإذا كان هذان الكتابان قد خلقا فجوة بين عالم الطبيعة، عالم الحتمية، وعالم الأخلاق، عالم الحرية، فإن كانط يحاول أن يسد هذه الفجوة في كتابه « نقد ملكة الحكم « عن طريق مبدأ الغائية. وفي كتابه « الدين في حدود العقل وحده « نجد صراعاً بين عقائد وأديان تاريخية مختلفة، ويحاول كانط حل هذا الصراع بتقديم ما يطلق عليه اسم « الدين الأخلاقي» أو «الدين الباطني»، أو الدين المسطور في القلوب الذي يوحد، ويجمع، في رأيه، جميع المعتنقين في العقل تحت لواء حكومة عالمية أخلاقية.

وتظهر هذه النزعة السلمية بصورة أكثر جلاء في كتاباته السياسية مثل مقاله « في القول العام: قد يكون هذا صحيحاً نظرياً، ولكنه لا ينطبق عملياً «، ومقاله « ما التنوير « وغيرهما، ففيها لا يحبذ كانط الثورة واستخدام القوة ضد الحكام الطغاة. وقبل أن نمضي قدماً في بيان هذه المسألة نود أن نشير إلى أن كانط رحب بالثورة الفرنسية، واستبشر بفجر الخلاص على يديها، واعترف صراحة، كما سنبين فيما بعد في هذا البحث، بوقوفه إلى جانب أفكارها الإنسانية عن الحرية، والإخاء، والمساواة... إلخ. ولكن على الرغم من ذلك، فإن موقفه العام من الثورة واستخدام القوة هو الرفض. فالثورة، كما يصفها، تعني العودة إلى الطبيعة، وليس هناك حق مشروع وقانوني فيها. إنها بطبيعتها إنكار أنه يمكن الدفاع عن الحقوق القانونية والشرعية. ويرى أنه إذا « فعل الحاكم شيئاً ضد القوانين (إذا تعدى مثلا على قانون التوزيع المتساوي للأعباء السياسية في فرض الضرائب أو التجنيد...إلخ) ، فإنه لا يجوز للمواطن أن يقاوم، بل يجوز له أن يشكو من هذا الجور [41]. ويذهب إلى أنه إذا كانت هناك بعض الشعوب قد لجأت إلى الثورة ضد حكامها مثل سويسرا، وبريطانيا العظمى، وهولندا، فإن « هذه الشعوب

قد أخطأت خطأ جسيماً في البحث عن حقوقها بمثل هذا الأسلوب » [42].

إن الثورة، كما يرى كانط، قد تضع حداً للاستبداد وللقهر القائم على الجشع والتسلط، بيد أنها لا تقدم على الإطلاق إصلاحاً حقيقياً في أساليب التفكير [43]. والبديل الذي يقترحه كانط عند وجود حكام طغاة هو بديل «سلمي» يتمثل في «مبدأ العلانية» Principle of Publicity الذي بمقتضاه يكون من حق المواطن- خاصة المواطن من حيث إنه عالم ملم بالأمور- أن ينقد الحاكم، ويخبره بالخطأ الذي وقع فيه وعن النتائج المترتبة عليه [44]. فعلى سبيل المثال يجب على الضابط أن يطيع رؤساءه عندما يتلقى أمراً من الأوامر، لكن ذلك لا يمنعه من أن يقوم بإبداء ملاحظات من حيث إنه عالم ملم بالأمور على الأخطاء الموجودة في الخدمة العسكرية، ومن أن يقوم بعرضها على الجمهور ليحكموا عليها [45]. إن حرية التعبير هي التي تضمن حقوق الشعب، ولكن يجب ألا تجاوز حدود الاحترام، والولاء للدستور الموجود، وهي تخلق اتجاهاً ليبرالياً بين المواطنين.

وتبلغ نزعة كانط السلمية ذروتها في مشروعه للسلام الدائم، حيث لاحظ نزاعاً، وحروباً بين الدول، وأدرك ما للحروب من نتائج وخيمة سواء بالنسبة للمنتصر أم للمنهزم، وأدرك من ناحية أخرى النتائج المترتبة على السلام، فقدم مشروعاً لسلام عالمي دائم، آملاً أن يتحقق في دنيا الواقع. يذهب كانط في مشروعه إلى أن حالة السلام بين الناس ليست حالة فطرية «فالحالة الفطرية أدنى أن تكون حالة حرب، وهي إن لم تكن حرباً معلنة، فإنها على الأقل تنطوي على تهديد دائم بالعدوان» [46]. إن الحرب متأصلة في الطبيعة البشرية، والإنسان شرير، ينزع بطبيعته إلى التدمير، والعدوان، ويسعى إلى أن يوقع الأذى والضرر بغيره. وتؤكد الوقائع التاريخية ذلك.

ولكن على الرغم من هذا، فإن كانط لا يحبذ الحرب، وينظر إليها على أنها مصدر جميع الشرور، ومصدر الفساد الأخلاقي، وهي مغامرة هائلة يمتد تأثيرها إلى أجزاء العالم المتشابك في مرافقه. ويصفها، كما أشرنا سابقاً، بأنها ليست إلا وسيلة تعسة يلجأ إليها المرء مضطراً لإقرار حقه بالقوة. كما أنها بالنسبة إلى الفريقين- المنتصر والمنهزم- غير مأمونة الجوانب، بل وأيضا سيكون لها من عواقب وخيمة تشعر بها الدولة بفداحة ديونها، والنصر فيها لا يحسم مسألة الحق [47]. وإذا كانت تبدو أمراً نبيلاً ينبعث إليه الإنسان طلباً للمجد، وإظهار الشجاعة، مما دفع بعض الفلاسفة، ومنهم هيجل مثلاً، إلى تمجيدها حيث يرى أنه «بفاعلية الحرب تحافظ الشعوب على صحتها الأخلاقية ... تماماً مثلما أن هبوب الرياح يحفظ البحر من التلوث الذي يوجد نتيجة لفترة طويلة من السكون، كذلك فإن فساد الأمم قد يوجد نتيجة لفترة طويلة من السلام» [48]، فإنها رغم ذلك « شر لأنها تزيد عدد الأشرار أكثر مما تستأصل منهم « على حد تعبير أحد اليونانيين [49]. ويذهب كانط، فضلاً عن ذلك، إلى أنه عندما تنتهي الحرب ويُعقد السلام يجمل بالشعب أن يفرض على نفسه، بعد يوم الشكران، يوماً للتوبة والغفران يسأل الله فيه- باسم الدولة- أن يعفو عما لا يزال الجنس البشري يقترفه من إثم كبير [50].

ويرفض كانط الأساليب الوحشية والعدائية في الحرب، فلا يجوز القيام بأعمال الاغتيال، والتسمم، وما شابه ذلك [51]. وهدفه من ذلك التأكيد أنه يجب

حتى أثناء الحرب الإبقاء على شيء من الثقة في شعور العدو، مما يتيح فرصة أكثر للسلام.

ثانياً: أسس ومصادر خارجية

وأهم هذه الأسس والمصادر في اعتقادنا هي:

أ- المسيحية والدعوة إلى السلام والأخوة العالمية:

تؤكد المسيحية أن جميع الناس يشكلون مجتمعاً بشرياً واحداً تسوده المحبة والسلام، لا يفرق بينهم جنس، ولا لغة. ولذلك يخاطب بولس الرسول المسيحين قائلاً «سالموا جميع الناس»، لأن «المحبة هي تكميل الناموس»، «عيشوا بالسلام، وإله المحبة والسلام سيكون معكم» [52]. ويقول أيضاً «لأننا جميعاً بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد، يهوداً كنا أم يونانيين، عبيداً أم أحراراً، وجميعنا سقينا روحاً واحداً» [53].

ولا نستعبد أن كانط في دعوته إلى السلام العالمي كان يضع نصب عينيه ما تؤكده المسيحية من دعوة إلى السلام ووحدة البشر. فهو يرى أن السلام الدائم لا يتحقق، عن طريق وسائل سياسية وقانونية فحسب، بل إن تحقيقه يعتمد أيضاً على التقدم الأخلاقي للإنسان، وقد بيّن ذلك في كتابه « الدين في حدود العقل وحده «. إذ يرى في هذا الكتاب أن الرسالة الحقيقية للدين المسيحي هي رسالة أخلاقية تتمثل في الدعوة إلى وحدة البشر. ويتحقق هذا الهدف بتأسيس مجتمع يقوم على قوانين الفضيلة. مهمة هذا المجتمع هي أن يفرض هذه القوانين على الجنس البشري بأسره، ويبسط لواء الفضيلة على كل أولئك الذين يحبون الخير. ويسمي كانط هذا المجتمع « مملكة الفضيلة « [54].

وإذا تساءلنا كيف يمكن تحقيق فكرة هذا المجتمع، فإن رد كانط هو أن مهمة تأسيسه يقوم بها الله نفسه، ويجب على الإنسان أن يعمل من أجل تحقيق هذه الفكرة في دنيا الواقع، ويكون ذلك بتأسيس «كنيسة» تكون بمثابة التمثل المرئي لهذا المجتمع على الأرض. وهذه الكنيسة لها علامات وأمارات منها: أنه يجب النظر إلى كل أعضاء الجنس البشري، بصرف النظر عن اللون، الجنس، اللغة.. إلخ، على أنهم أعضاء فيها، ولا بد أن يتحد هؤلاء الأعضاء تحت مبدأ الحرية، يضاف إلى ذلك أن دستورها لا يتغير، ولا يتبدل [55].

ونحن نرى أن دعوة كانط إلى تأسيس ما يسميه « مملكة الفضيلة «، أو «مملكة الله الأخلاقية» على الأرض لا تختلف عن دعوته إلى ما يسميه في كتابه «مشروع للسلام الدائم» «بحلف الشعوب». هذا الحلف هو فكرة، أو هدف يجب أن نأمل في تحقيقه، ويجب أن يمتد شيئاً فشيئاً إلى الدول جميعاً فتؤلف بذلك «جامعة أمم»، تنمو على الدوام حتى تشمل آخر الأمر شعوب الأرض جميعاً. وغاية هذا الحلف المحافظة على حرية الدول المتحالفة، وضمان جماح الأهواء التي تنافي الإنسانية. إن غايته، بوجه عام، تحقيق السلام الدائم كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

ب- عصر كانط:

إذا صح القول إن الفيلسوف هو ابن عصره، وربيب زمانه، على حد تعبير هيجل، فإننا نستطيع أن نقول إن مشروع كانط للسلام الدائم لم يكن بمنأى ومعزل عن الأحداث التي حدثت في عصره. ولعل أهم هذه الأحداث الثورة الفرنسية (1789-1799)؛ تلك الثورة التي وجد فيها تحقيقاً للآراء

التي كان يؤمن بها، ويدافع عنها؛ فقد كان يؤمن بكرامة الإنسان، والمساواة، والعدالة. لقد جذبته هذه الثورة، وأثارته، وأيقظت فيه حماسة متوقدة. يقول كانط «إن الثورة التي نلاحظ حدوثها في عصرنا في أمة ذات شعب موهوب قد تنجح، وقد تفشل، وقد تكون مليئة بالبؤس والشقاء حتى إنه لا يقرر أي إنسان ذي تفكير سديد أن يقوم بالتجربة نفسها مرة ثانية بهذا الثمن الباهظ نفسه حتى ولو كان في مقدوره أن يأمل في تنفيذها بنجاح في المحاولة الثانية. ولكنني أؤكد أن هذه الثورة قد أحدثت في قلوب جميع المشاهدين الذين لم يشتركوا فيها، وفي رغباتهم تعاطفاً ومشاركة مطامح توشك أن تكون بهجة وحماسة» [56].

ويصف كانط هذه الثورة بأنها صورة من صور تقدم البشرية إلى سيطرة العقل، ذلك التقدم المرهون بتأسيس النظام الجمهوري، «فقد أكدت أنه من حق كل شعب أن يكون له دستور مدني من النوع الذي يجده مناسباً دون تدخل من أية قوة أخرى، والدستور الممكن الوحيد هو الدستور الجمهوري» [57]. وقد رأى كانط في عصره علامات مليئة بمدح الأفكار الجمهورية، وانتقال فرنسا من نظام الحكم الوراثي إلى الحكم الجمهوري، الذي وجد فيه مزايا كثيرة منها: أنه يقوم على مبادئ أساسية ترتكز عليها دعائم الدولة وهي: الحرية، المساواة، والاستقلال. كما أنه في ظل هذا النظام تكون السيادة للشعب، لأن الإرادة العامة هي التي تشرع وتضع القوانين.

وإذا رجعنا إلى مشروع السلام الدائم عند كانط، لوجدنا إعجاب كانط الواضح بالنظام الجمهوري، وتفضيله على غيره من أنظمة الحكم الأخرى حتى إنه يقرر في إحدى المواد أو الشروط الإيجابية (النهائية) للسلام بأنه «يجب أن يكون الدستور المدني للدولة هو الدستور الجمهوري» [58]. والسبب في ذلك أن ثمة علاقة وثيقة. كما يرى كانط . بين هذا الدستور وتحقيق السلام الدائم . ففي ظل هذا الدستور لا يمكن اتخاذ القرار بأن تقع الحرب أو لا تقع إلا برضاء المواطنين وموافقتهم . وطالما أن الأمر كذلك فإنهم يفكرون جيداً في نفقاتها، والنتائج التي تترتب عليها من معاناة، وكوارث، وتدمير، وفساد أخلاقي ...إلخ، ونتيجة لذلك فإنهم قد يترددون في شن الحرب . أما في حالة كون الدستور ليس جمهورياً، فإن الحرب تقرر فيه بأقل قسط من التدبر، والتفكير؛ لأن الحاكم ليس عضواً في الدولة، بل هو مالكها، ولا يخشى، من ثم، إن وقعت الحرب أن تؤثر في مائدته، أو في دور لهوه، أو في حفلات بلاطه . إنه يستطيع أن يقرر الحرب لأضعف الأسباب وأتفهها، كما لو كان يقرر رحلة للهو أو الصيد [59] .

جـ- أسلاف كانط في السلام:

ثمة محاولات من جانب بعض المفكرين والمصلحين والفلاسفة السابقين على كانط لصياغة تصورات نظرية تتعلق بسلام عالمي. ولا نستبعد أن كانط قد تأثر في دعوته إلى سلام دائم بهذه المحاولات وبصفة خاصة ما نجده عند « الأب سانت دي بيير «Abbe de Saint Pierre) 1658-1743)، وجان جاك روسو 1778 -1712 (J. Rousseau). وما يدل على ذلك أنه يستهجن في مؤلفه» فكرة التاريخ بالمعنى العالمي «ميل أولئك الذين سخروا من هذين المفكرين في اهتمامهما بفكرة السلام، يقول في ذلك» على الرغم من أن هذه الفكرة (السلام العالمي) قد تبدو

يوتوبية، وكانت محل سخرية واستهزاء عندما قدمها الأب سانت دي بير، وروسو (ربما لأنهما اعتقدا أنها قريبة في التحقيق)، فإنها مع ذلك المحصلة التي لا مفر منها للأزمة التي فيها أضر الناس بعضهم ببعض. إن هذه الأزمة لا بد أن تجبر الدول وترغمها على أن تتخذ نفس القرار الذي يجبر الإنسان على أن يتخذه (حتى لو كان صعباً بالنسبة لها)، وأعني بذلك قرار تنازله عن حريته الوحشية والبحث عن الأمن والسلام في ظل دستور شرعي» [60].

لقد كان «الأب سانت دي بيير» متفائلاً في دعوته إلى سلام عالمي، بينما كان «روسو» متشائماً. ويبدو أن كانط قد سلك طريقاً وسطاً بين تفاؤل بيير وتشاؤم روسو. والسؤال هو: كيف ذلك؟ كان الأب سانت بيير يأمل في كتابه « مشروع لجعل السلام في أوروبا سلاماً دائماً « (1713-1712)، كما كان يأمل كانط في كتابه « مشروع للسلام الدائم «، في أن يكون هناك سلام عالمي، فيذهب إلى أن معاهدات السلام ليس فيها أي ضمان للاستمرار، بل تنطوي على جرثومة حروب مقبلة، ولا تؤدي إلا إلى هدنات وقتية» عابرة بين حروب، وسيظل الأمر على هذا النحو طالما تؤلف الدول مجتمعاً منظماً. لذا قدّم مشروعه لضمان بقاء السلام [61].

قسّم بيير مشروعه في السلام إلى اثنتي عشرة مادة أساسية، وثماني مواد مهمة، وثماني مواد مفيدة. وخلاصة هذا المشروع أنه يقترح إنشاء اتحاد بين الأمراء (الملوك، الرؤساء....إلخ) لتكوين ما يشبه دولة اتحادية (فيدرالية) لها وجود مستقل، ودستور، ومهمات تتميز عن تلك الخاصة بالدول المؤلفة لها. ومن هذه المهمات المحافظة على السلام، وحماية نظم الحكم القائمة في دولها، ويمكن لها أن تتدخل في الشؤون الداخلية لإحدى دولها من أجل المحافظة على شكلها الأساسي، ولتقديم المساعدة العاجلة والكافية للأمراء في الحكومات الملكية، وللرؤساء في الجمهوريات ضد الثائرين والمتمردين [62].

ويتكون هذا الاتحاد من أربع وعشرين دولة من دول أوروبا، والهيئة العليا فيه هي مجلس الشيوخ، ويتكون من خمسة أعضاء عن كل دولة. ومجلس الشيوخ هو الهيئة التشريعية، والتنفيذية، والإدارية، والقضائية، وهو فوق الدول المختلفة، لأن له امتيازات وسلطات هائلة [63]. ولكل دولة عدد سكانها مليون صوت في هذا المجلس، أما الدول الصغيرة فتكون بمثابة ولايات تنتخب فيما بينها ممثلها في المجلس. وعند نشوب منازعات دولية فإن إجراءات الفصل تتم على مرحلتين: المصالحة والوساطة في المرحلة الأولى، والتحكيم في المرحلة الثانية. ويحيل مجلس الشيوخ المنازعات الدولية إلى لجنة خاصة بهذا الغرض. وتتولى هذه اللجنة تسوية النزاع بطريقة ودية، فإن لم تفلح في ذلك يتولى مجلس الشيوخ التحكيم، فيرفع تقريرها إلى أمين مجلس الشيوخ فيتولى بدوره طبعه وتوزيعه على أعضاء المجلس، الذي يتحول حينئذ إلى محكمة تتولى التحكيم. والحاكم الذي يرفض تنفيذ الحكم يُعلن أنه عدو للجماعة وتُشعل الحرب ضده إلى أن ينفذ الحكم والتسويات الصادرة ضده [64].

ويدعو «بيير» في مشروعه إلى تكوين جيش دولي الغرض منه تأمين السلام، وذلك من أجل فرض احترام قرارات مجلس الشيوخ.

في مقابل نزعة بيير التفاؤلية في أن يكون هناك سلام عالمي، نجد روسو يعلن أنه لا شيء أكثر نبلاً،

وجمالاً، وفائدة من أن يتصور العقل سلاماً دائماً بين كل شعوب أوروبا. بيد أنه يرى أنه من المستحيل أن يتحقق هذا الهدف في الواقع، لأنه مجرد مثال مدخر في السماء، لا يستطيع الناس أن يحققوه على الإطلاق، ولا يستطيعون أن يأملوا في التقدم نحوه على الإطلاق [65]. ويذهب إلى أن الأخوة المزعومة للأمم لا تبدو شيئاً سوى أنها لفظ ليس له معنى « فإذا أقيم النظام الحالي على صخرة، فإنه معرض للعواصف التي تجعل أعضاءه في حالة مستمرة من القلق ...» [66].

ومن الأسباب التي يذكرها روسو والتي تبين أنه من المستحيل أن يكون هناك سلام عالمي أنانية حكام أوروبا وحبهم لذاتهم، وطموحاتهم. فهؤلاء الحكام يعتمدون على الحرب لا ليوسعوا امبراطورياتهم، ويرهبوا الآخرين فحسب، بل ليضمنوا سلطانهم في أوطانهم بإرهاب مواطنيهم. إن هؤلاء الحكام لا يعنيهم الصالح العام، ولا سعادة الرعية، ولذا يرى روسو أن هؤلاء الحكام الذين يدافعون عن اتحاد فيدرالي، أو عن سلام عالمي هم أنفسهم الذين يعارضونه [67].

يضاف إلى ما سبق أن الإرادة الخيرة أو النية الطيبة- التي قد لا نجدها على الإطلاق في الأمراء، ووزرائهم- لا تكفي لتكوين اتحاد فيدرالي، ومن ثم لا تكفي لتحقيق سلام عالمي. ولذلك يجب اللجوء إلى القوة، والعنف، والثورة من أجل تحقيق هذا الهدف، يقول روسو «يجب علينا ألا نفترض مع الأب سانت دي بيير ... حتى لو سلمنا بالإرادة الخيرة التي لا نجدها مطلقاً عند الأمير أو عند وزرائه، أنه من اليسير أن نجد لحظة مواتية لتنفيذ خطته، لأنه يجب ألا تفوق المصالح الخاصة المصلحة العامة، وهذا أمر يتطلب تعاون الحكمة في كل هذه الرؤوس، وتعاون العلاقات في هذه المصالح إلى درجة لا ينبغي أن نأمل أبداً في الصدفة أن توفر لها كل الظروف. ولكن نظراً لعدم وجود مثل هذا الاتفاق فإن الشيء الوحيد الذي يحققه هو القوة ... وبدلاً من تأليف كتب، يجب تعبئة الجيوش وحشدها» [68].

وخلاصة القول هي أن روسو يرى أن تحقيق السلام العالمي هو حلم مستحيل وغير معقول.

ويتفق كانط مع «بيير»، و «روسو» في بعض النواحي، ويختلف عنهما في نواح أخرى. فهو يتفق مع بيير في إمكان أن يكون هناك سلام دائم، وفي أن معاهدات السلام ليس فيها أي ضمان لتحقيق السلام، ولا تؤدي إلا إلى هدنات وقتية عابرة بين حروب. ولكنه يختلف عنه في أنه لا يلجأ إلى العبارات المثيرة للاشفاق على الناس من ويلات الحرب، بل كان كلامه دائماً عقلياً رزيناً [69]. كما أن مشروعة في السلام لا يقتصر على دول أوروبا، وإنما كان هدفه سلاماً عالمياً دائماً يجمع الدول جميعاً، أو شعوب الأرض جميعاً، في «جامعة أمم»، أو في «حلف سلمي».

ويتفق كانط مع روسو في أنه لابد أن يكون هناك تغيير جذري داخل الدول حتى تكوّن اتحاداً سلمياً، بيد أنه يرى، خلافاً لروسو، أن هذا التغيير يمكن أن يتم دون لجوء إلى القوة والعنف والثورة. إنه يمكن أن يتم عن طريق الإصلاح التدريجي بأن تصبح الدساتير في كل الشعوب جمهورية، اعتقاداً منه بأنه في ظل النظام الجمهوري تكون هناك فرصة أكبر لتحقيق السلام، حيث يجب اللجوء إلى رأي المواطنين لتقرير ما إذا كان لا بد من القيام بحرب أو لا، وبالتالي فإنهم يفكرون جيداً قبل القيام بمثل هذه اللعبة الخطيرة، لأنهم هم الذين سيحاربون، ويدفعون نفقات الحرب، ويصلحون الدمار الذي

تخلفه الحرب وراءها. وتكون النتيجة أنهم في أحيان كثيرة لا يقدمون على الحرب [70].

وإذا كان روسو يرى أن أنانية الحكام وحبهم لذاتهم تقف عائقاً أمام تحقيق السلام، فإن كانط يواجه هذه العقبة بالدعوة إلى بيئة عالمية سلمية تشبه بيئة المواطنين الأفراد داخل المجتمع المدني، بيئة تُعامل فيها الدول وكأنها أشخاص، أعني أن لها كرامتها، وحريتها، وتتجه نحو الصالح العام وهو تحقيق السلام الدائم.

خاتمة وتعقيب:

إن مَنْ يمعن النظر في الأسس والمصادر – خاصة الأسس والمصادر الداخلية- التي ذكرناها في هذا البحث، ونعتقد أن مشروع كانط للسلام الدائم يقوم عليها، يلاحظ أن فلسفة كانط في المرحلة النقدية تكاد تكون ماثلة كلها في هذا المشروع. ولا غرابة في ذلك؛ فقد كتب كانط مشروعه في مرحلة متقدمة من العمر، وربما أراد أن يجمع فلسفته كلها في مؤلفه «مشروع للسلام الدائم» الذي عرض فيه هذا المشروع.

ونحب أن ننوه إلى أننا لا نزعم أن الأسس والمصادر التي ذكرناها في هذا البحث هي كل الأسس والمصادر التي يقوم عليها مشروع كانط في السلام الدائم، ومن ثم فإن المجال مفتوح للبحث والدراسة. ولنا بعض الملاحظات:

1 – إذا كانت الإرادة الخيرة، أو النوايا الطيبة، أساساً للسلام الدائم، كما يرى كانط، فما هو الحل إذا اختلفت الدول، ولم يكن من المستطاع تحقيق الانسجام بين إرادتها الخاصة؟ يضاف إلى هذا أننا نلاحظ أن الكل، وخاصة في أيامنا هذه، يتحدث عن الأخلاق، والضمير، والقيم... إلخ، بكلمات براقة لكنهم يقفون عند حدود الكلمات فقط، مع أنه كما يقول هيجل «لا بد للمبدأ من قوة. وما دام لا توجد قوة تقرر في مواجهة الدول ما هو حق من حيث المبدأ، وتنفذ هذا القرار، فإنه ينتج من ذلك أن العلاقات الدولية لن تتجاوز مرحلة الوجوب» [71].

2 – يصعب، في حقيقة الأمر، أن نتحدث عن السلام بلغة «الوجوب» كما يرى كانط، فنقول إنه «يجب» أن يكون هناك سلام دائم، ويجب أن تُلغى الجيوش الدائمة، ويجب أن يكون دستور الدولة جمهورياً ... إلخ، ما دامت المسألة متوقفة على إرادة الدولة الجزئية التي تستطيع أن تنقض المعاهدات، وتشن الحرب في أية لحظة. ومن ذا الذي يستطيع أن يضمن لنا «ضرورة» التزام الدولة بالمحافظة على بنود اتفاقيات السلام، وتنفيذ نصوص المعاهدات الدولية؟؟ [72] هل استطاعت عصبة الأمم، والأمم المتحدة بعد مشروع كانط أن تضمن لنا ذلك؟ كلا، وخير شاهد على ذلك ما نشاهده من أحداث في عالمنا اليوم؛ فقد «صار الحكم لمن يسوق رتلاً من الدبابات، أو يدفع سرباً من الطائرات ويتلو ذلك بالبيانات !» [73].

الهوامش

1 – أمانويل كانط، مشروع للسلام الدائم، ترجمة د. عثمان أمين، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1952، ص 7 (تقديم بقلم المترجم) . انظر في ذلك أيضاً: د. إمام عبدالفتاح، دراسات هجيلية، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع 1985. ص 131 وما بعدها.

2 –عبدالرحمن بدوي، أمانويل كانط، فلسفة القانون والسياسة، الكويت: وكالة المطبوعات، 1979. ص 209، 213.

(×) انظر في ذلك على سبيل المثال: د. عبد الرحمن بدوي، أمانويل كانط، فلسفة القانون والسياسة، وكذلك د. محمود سيد أحمد، دراسات في فلسفة كانط السياسية، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع 1988 . وكذلك: د. عطيات أبو السعود، «كانط والسلام العالمي»، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم الفكر، ،عدد 4، مجلد 31، 2003 .

3 –انظر في ذلك: د. محمود سيد أحمد، «مبدأ الكلية بين كانط وهابرماس»، عالم الفكر، مجلد 34، عدد 4، 2006 ص 346وما بعدها.

4 -Immanuel Kant. Critique of Pure Reason. An English trans. By Smith. N.K.. P. 41

5-Ibid. P. 42 .

6 – لمعرفة دور الحساسية في المعرفة، انظر:

Immaneul Kant. Critique of Pure Reason. P. 63 وما بعدها

ولمعرفة دور الفهم، انظر: Ibid، وما بعدها P. 112

ولمعرفة دور العقل، انظر: Ibid، وما بعدها P. 533

وانظر في ذلك أيضاً: د. محمود سيد أحمد، مبدأ الكلية بين كانط وهابرماس، ص 350 وما بعدها.

7 – أمانويل كانط، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة د. عبد الغفار مكاوي القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980 . ص 94 .

8 –المرجع نفسه، ص 62 .

9- Immaneul Kant. Critique of Judgement. The First part: Critique of Aesthetic Judgement. An English trans. By Meredith. J.C. p.51 .

10 – انظر في ذلك: د. محمود سيد أحمد، مفهوم الغائية عند كانط، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1988. ص 165 وما بعدها.

11 . أمانويل كانط، مشروع للسلام الدائم، ترجمة د. عثمان أمين . ص 56 . قارن:
Immaneul Kant. Perpetual Peace. in "Kant's Political writings". edited by Hans Reiss. and translated by Nisbet. H.B.. P. 104 .

12. أمانويل كانط، مشروع للسلام الدائم، ص 58، قارن:

الترجمة الإنجليزية، 105. p.

13. Immaneul Kant. Critique of Pure Reason. PP. 557 & 559.

14. Immaneul Kant. The Metaphysics of Morals. The first part: Philosophy of Right. in "Kant's Political Writings". P. 174.

15.Ibid. P. 174 .

16 . أمانويل كانط، مشروع للسلام الدائم، ص 33، قارن الترجمة الإنجليزية: P. 6

17 . كانط، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ص 17 .

18 . كانط، مشروع للسلام الدائم، ص 25، قارن الترجمة الإنجليزية: P. 93 .

19 – د. إمام عبدالفتاح، دراسات هيجيلية، ص 176.

20 . أمانويل كانط، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ص 62 .

21 . المرجع نفسه، ص 73 .

22 . انظر المرجع نفسه، ص 76 .

23 . أمانويل كانط، مشروع للسلام الدائم، ص 28، قارن الترجمة الإنجليزية: P. 94

24 . المرجع نفسه، ص 29، قارن الترجمة الإنجليزية P. 95

25 . المرجع نفسه، ص 41، قارن الترجمة الإنجليزية P. 99

26 . المرجع نفسه، ص 51، قارن الترجمة الإنجليزية P. 102

27 . المرجع نفسه، ص 83، قارن الترجمة الإنجليزية P. 115

28 . أمانويل كانط، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ص 79 .

29 . انظر، المرجع نفسه ص 73 .

30 . انظر، المرجع نفسه ص 81

31 . د. توفيق الطويل، الفلسفة الخلقية، نشأتها و تطورها، القاهرة: دار النهضة العربية، 1976 . ص 404 .

32- Immaneul Kant. Religion Within the limits of Reason alone. An English trans. By Green. M. & Hudson. p.89.

33 . أمانويل كانط، مشروع للسلام الدائم، ص 26، قارن الترجمة الإنجليزية P. 98

34 . المرجع نفسه، ص 32، قارن الترجمة الإنجليزية P. 96

35 . المرجع نفسه، ص 27، قارن الترجمة الإنجليزية P. 94

36 . المرجع نفسه، ص 26، قارن الترجمة الإنجليزية P. 94

37-Immaneul Kant. Critique of Pure Reason. p. 519.

38-Immaneul Kant. Critique of Judgement: The Second part. Critique of Teleogical Judgement. An English trans. By Meredith. J.C. P. 25 .

39 . أمانويل كانط، مشروع للسلام الدائم، ص 71 . 72. قارن الترجمة الإنجليزيةpp.110&111

40 . المرجع نفسه، ص 81 . قارن الترجمة الإنجليزية P. 111.

41-Immaneul Kant. The Metaphysics of Morals (The first part) . P. 143.

42- Immaneul Kant. On the Common Saying " This may be true in Theory but does not apply in Pratice. in "Kant's Political writings". P. 82 .

43-- Immaneul Kant. What is Enlightenment. in " Kant's Political Writings". P. 126.

44 . راجع في ذلك: د. محمود سيد أحمد، دراسات في فلسفة كانط السياسية، ص، 62 وما بعدها .

45. Immaneul Kant. What is Enlightenment. P. 86 .

46 . أمانويل كانط، مشروع للسلام الدائم، ص 39. قارن الترجمة الإنجليزية p.98.

47 – المرجع نفسه، ص 52 . قارن الترجمة الإنجليزية P. 102.

48 – فريدريك فلهلم هيجل، أصول فلسفة الحق، ترجمة د. إمام عبدالفتاح، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1996. ص590.

49 . أمانويل كانط، مشروع للسلام الدائم، ص 75 .

50 . المرجع نفسه، ص 59 (هامش).

51 . المرجع نفسه، ص 32 . قارن الترجمة الإنجليزية P. 96

25 – رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كونثوس، الإصحاح الثالث عشر: 11.

53 – رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثه، الإصحاح الثاني عشر: 12.

54 – د. محمود سيد أحمد، مفهوم الغائية عند كانط، ص175.

55 – المرجع نفسه، ص178.

56- Immaneul Kant. the Contest of Faculties. in " Kant's political writings ". p.182.

57- Ibid. p. 182.

58 –أمانويل كانط، مشروع للسلام الدائم، قارن الترجمة الإنجليزية p.99 .

59 –المرجع نفسه، ص 45 . قارن الترجمة الإنجليزية P. 100

60- Immaneul Kant. Idea for a Universal History. p.p.47-48.

61 –د. عبدالرحمن بدوي، أما نويل كانط، فلسفة القانون والسياسة، ص213.

62 –المرجع نفسه، ص213. 214.

63 –المرجع نفسه، ص214.

64 –المرجع نفسه، ص 215.

65-Harry Hinsley. Power and the Pursuit of Peace. p.55 .

66-I bid. p.58 .

67-I bid. p. 49 .

68-I bid. pp. 48-49 .

69 – د. عبدالرحمن بدوي، أمانويل كانط، فلسفة القانون والسياسة، ص222.

70 – أمانويل كانط، مشروع للسلام الدائم، ص41.

71 – فريدريك فلهلم هيجل، أصول فلسفة الحق، ترجمة د. إمام عبدالفتاح،ص596.

72 – انظر في ذلك: د. إمام عبدالفتاح، دراسات هيجيلية، ص172.

73 – د. عبدالرحمن بدوي، أما نويل كانط، فلسفة القانون والسياسة، ص 246.

المصادر والمراجع

مصادر ومراجع عربية (مؤلفات وترجمات):

-د. أحمد، محمود سيد. دراسات في فلسفة كانط السياسية. القاهرة: دار الثقافة للنشر، 1988.

-د. أحمد، محمود سيد. مفهوم الغائية عند كانط. القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1988.

-د. أحمد، محمود سيد. «مبدأ الكلية بين كانط وهابرماس». الكويت، المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون، عالم الفكر، مجلد 34، عدد 4، 2006.

-د. الطويل، توفيق، الفلسفة الخلقية، نشأتها وتطورها. القاهرة: دار النهضة العربية، 1976.

-د. بدوي، عبدالرحمن. أمانويل كانط، فلسفة القانون والسياسة. الكويت: وكالة المطبوعات، 1979.

-د. عبدالفتاح، إمام. دراسات هيجلية. القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1985.

-كانط، أمانويل. مشروع للسلام الدائم، ترجمة د. عثمان أمين. القاهرة: مكتبة الأنجلو، 1952.

-كانط، أمانويل. تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة د. عبدالغفار مكاوي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980.

-هيجل، فلهلم فريدريك. أصول فلسفة الحق، ترجمة د. إمام عبدالفتاح. القاهرة: مكتبة مدبولي، 1996.

مراجع أجنبية:

-Hinsley. Harry. Power and the Pursuit of peace. Cambridge: Cambridge. Univ. press. 1963.

-Kant. Immaneul. Critique of Pure Reason. An English tran. By Smith. N.K. London: Macmillan & Co. limited. 1950.

-Kant. Immanuel. Critique of Judgement. the First part: Critique of Aesthetic Judgement. An English trans. By Meredith. J.C. Oxford: The Claredon press. 1911.

-Kant. Immanuel. Critique of Judgement. the second part: Critique of Teleological Judgement. An English trans. By Meredith. J.c. Oxford: the calredon press. 1928.

-Kant. Immanuel. Religion Within The Limits of Reason Alone. An English trans. By Green. M. & Hudon. H. London: Glasgow.1934.

-Reiss. Hans (editor). Kant's Political Writings. An English trans. By Nibet. H.B. Cambridge: Cambridge Univ. press. 1971.

وتتضمن هذه الكتابات:

Perpetual Peace. The Philosophy of Right. Idea for a Universal History. on the Common Saying " this may be true in theory but does not apply in Practice ". What is Enlightenment.